منهج
المدرسة العقلية الحديثة
في التفسير

الجزء الأول

تأليف

فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي

منهج
المدرسة العقلية الحديثة
في التفسير
الجزء الأول

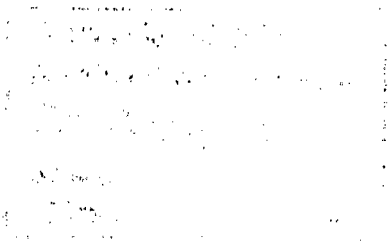

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية
مهذّبة ومنقّحة
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

عنوان المؤلف: الرياض ص ب ١٥١٧٦
الرياض ١١٤٤٤
هاتف «٤٧٦١٩٠٨»

طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية برقم ٥٥٠/ ٥وتاريخ ١٢/ ٥/ ١٤٠٣ هـ

مقـــدّمـــة

الحمد لله أنزل الفرقان رحمة للعالمين ، وجعله مناراً للمهتدين ونوراً للمستضيئين وجعله زماماً للفكر في شططه ، وقياداً للعقل في تمرده ، ومرشداً للعلم في جولته ، ومحاراً للمفكر في حيرته ، وملجأ للفيلسوف من ورطته ، ودستوراً للحاكم في دولته ، ونظاماً للمحكوم في أمته ، وشفاء للصدور في حكمته ، وربيعاً للقلوب في روضته ، وعزاء للفقير في ضيعته وواعظاً للغني في بهجته وأنيساً للمستوحش في وحشته ونجياً للمؤمن في خلوته ، وهدى للعالم برمته .

أحمده حمد مقر بفضله معترف بآلائه فله الحمد أولاً وآخراً وأصلي وأسلم على خير خلقه وخاتم أنبيائه ومبلغ قرآنه والداعي إلى الله على صراط مستقيم .

وبعد . . .

نظرت نظرة في الأفق وأجلت ناظري في السماء وكأني ـ من حيث لا أدري ـ أفر من يومي إلى أمسي علّي أجد فيه نشـوة من حياة . . . أو بارقة من أمل . .

نظرت في حال أمتي فآلمني منها ما يحزفي نفس كل مسلم : قد انهكها اللحاق الأعمى لمخلفات الحضارة الغربية فتضعضعت الأركان وتبلبلت

الأذهان وأصبحت في حال من التدهور والإنحلال لا يعلم إلا الله ما ستصير اليه .

نظرت في الأفق وأجلت ناظري في السماء استلهم منها العبر ، واستقرئها أحداث التاريخ ، واسائلها عن الدواء الشافي فإذا صوت التاريخ يجلجل في الفضاء فيغمر كياني ويملأ سمعي حتى كدت أن أرى صوته ببصري !

أحسست بالرهبة تغمرني وبالسكون يملأوجداني أدركت أن لديه الدواء الشافي ، والعلاج الناجع .

سمعت فيما سمعت من حديثه قوله ما رأيت أمة كأمتكم تبحث عن علاج هو بين يديها فترفع الطرف عنه باحثة عن سواه، ما رأيت مريضا يجد العلاج الحاسم لمرضه ، والدواء الشافي لعلته يعيد إلى بدنه الصفاء كل الصفاء والنقاء كل النقاء ثم يعرض عنه باحثا عن دواء آخر . .

هممت بأن أسأل التاريخ عن الدواء فعادت الي الرهبة من مقاطعة حديثه وآثرت الصمت إلى سانحة أخرى .

قال التاريخ : لم يكن داؤكم هذا بأول داء يصيب ولا أول مرض أممي يقع ، وما علتكم بأول العلل . وحتى أضع يديك على الدواء أعود بك القهقرى إلى ما قبل أربعة عشر قرناً من الزمن .

لم يكن ثم هناك إلا جاهلية . . كان آباؤكم حينذاك يرسخون تحت اعبائها ويئنون تحت نيرها من حيث لا يشعرون .

كانوا يتخذون آلهتهم من الحجارة ينحتونها ويبيعونها ! هل رأيت أحدا يبيع ربه ؟!! إنها الجاهلية ، كانوا يعبدون التمرة ثم يأكلونها ! هل رأيت أحداً يأكل ربه ؟ إنها الجاهلية كانوا يئدون أولادهم وهل رأيت أحداً يئد ولده ؟ إنها الجاهلية .

جاء الإسلام والجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء هي السائدة وهي

الحاكمة ، وبدأ نور الإسلام : القرآن الكريم يعمل عمله فيها كما يطلع ضياء الشمس بعد ليل بهيم .

لم يكن القرآن في يوم من الأيام تلك يسعى إلى أحد على قدميه ، ولم يكن في يوم منها يتنقل من مسجد إلى منزل إلى مجتمع إلى حلقة بل كان يفعل هذا به رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، رجال لم تشغلهم تجارة أولهو عن ذكر الله .

حملوه على أكتافهم ونادوا به في مجتمعاتهم ونقلوه من أفواههم إلى آذان الكفار والمشركين وهذه بداية عمله. فسرى في أجسادهم كما يسرى الماء في عروق الأشجار بعد جفاف فإذا به يقلبها من شهباء مغبره يابسة الى خضراء يانعة مثمرة فقلب العقول ، وقلب الموازين كلها ، وانقلب المجتمع من الجاهلية الضالة إلى الإسلام الحنيف .

ودبت الحياة في الأمة فإذا بها أمة الأمم وصاحبة السيف والقلم ، وفعلت في ربع قرن ما تعجز عنه أعتى الأمم في عصرنا هذا بسلاحها وعتادها ومدرعاتها في قرون كاملة .

وأنتم في عصر إن لم يكن كعصر الجاهلية ذاك فهو قريب منه ولن يصلح عصركم هذا إلا بما صلح به ذاك ، ذلكم القرآن هو بين أيديكم ولا يزال ، لم يتغير ولم يتبدل ، وإنما تغيرت القلوب وتغير الرجال .

أرأيت لو قام نفر منكم بنشره بين الناس حفظاً وتلاوة ، وقاموا بتفسير معانيه للعامة والخاصة ووضحوا لهم مقاصده واهدافه ودعوهم إلى مثله وقيمه الخالدة وبذلوا ما وسعهم البذل وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم لتحقيق ذاك كيف سيكون حالكم حينذاك ؟ !

لا شك أنه سيقلب الموازين مرة أخرى وتصبح للمسلمين الدولة ، وتسلس لهم قيادة هذا العالم الى ما فيه خيرهم ، ويفتح الله على أيديهم بلاداً كثيرة ويدكوا حصون الكفار والمشركين وينشروا أريج السلام وعنوان وعقيدة

الإسلام على أرض البسيطة وتصبح الحاكمية لله وحده ، وتسود الدنيا السعادة بل السعادة في الدارين . .

سمعت التاريخ يقول هذا وعهدي به يواصل حديثه لم يتوقف ، شغلتني عنه نشوة سعادة من تلك السعادة التي أوصلني إياها في حديثه ، مكثت ساعة من الدهر يطوح بي الخيال في أرجاء المعمورة حيث اصبحت « الحاكمية لله وحده وتسود الدنيا السعادة بل السعادة في الدارين » كما قال التاريخ . .

أدرك التاريخ إنقطاع متابعتي لحديثه وأدرك سبب ذلك وأن بلوغ المسلمين الى تلك الدرجة هي الهدف وهي المراد الذي تصبوا إليه أنظارنا وتهفوا إليه قلوبنا فآثر ـ عفا الله عنه ـ الصمت في الحديث وصمت صمتاً أعادني إلى واقعي كما يوقظ توقف القطار النائم بداخله ينام على ضجيجه ويستيقظ على توقفه .

أعادني صمت التاريخ إلى واقعي فنظرت فإذا بنا لم نزل في البداية ـ ان كنا قد بدأنا حقا ـ فاسترجعت من حديث التاريخ علاجه :

١ ـ نشر القرآن الكريم بين الناس : حفظاً وتلاوة .
٢ ـ تفسير معانيه للعامة والخاصة وربط قلوبهم به وإيضاح مقاصده واهدافه .
٣ ـ الدعوة إلى التقيد والإلتزام بمثله وقيمه الخالدة وتطبيقه في المجتمع .
٤ ـ البذل ما وسعنا البذل والجهاد بالأموال والأنفس لتحقيق ذلك .

أما نشر القرآن الكريم وحفظه وتلاوته فمما يثلج الصدر أن هذا إتجاه قد بدأ يأخذ مساره وبدأنا نلمح آثاره في بعض مواطن المسلمين من افتتاح مدارس لتحفيظ القرآن ، وبعض المشاريع التي انشئت لأجل ذلك بارك الله فيها ووفق العاملين والقائمين بها لما يحبه ويرضاه .

أما تفسير القرآن وينبني عليه ما بعده فأمر هام في منتهى الأهمية وغايتها فنحن في عصرنا هذا أمام تيارات مختلفة لتفسير القرآن : كلها يدعي صلاح منهجه في التفسير ويدعو إلى سلوكه .

هناك المنهج العقلي في تفسير القرآن الكريم وهناك المنهج العلمي في التفسير وكذا اللون الأدبي ، واللون الإجتماعي ، وغيرها من المناهج .

وحتى يعطي التفسير للقرآن ثمرته يجب أن نقيمه على أسس ثابتة وننفي عنه زغل المناهج الضالة أو المنحرفة وحين تبقى الساحة طاهرة نظيفة نبدأ بوضع القواعد والأسس الراسخة للمنهج السليم .

لا نزعم أن كل ما في تلك المناهج وما قبلها خطأ جانب الصواب أو ضال انحرف عن جادة الطريق ، وإنما نقول أن فيها صواباً وفيها خطأ وفيها حقاً وفيها ضلالاً .

والخطوة الأولى فيما أرى من أجل المنهج الحق في التفسير والوصول الى الهدف منه تبدأ بتنقية المناهج الأخرى وبيان ذلك الحق فيها والتحذير من سواه وكشفه .

ومن هنا رأيت أن اتناول في دراستي هذه إحدى تلك المدارس في تفسير القرآن الكريم فاخترت .

« منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير » لكونه أهم واخطر المناهج المذكورة لكونها :

١ ـ تعطي العقل مرتبة تضاهي مرتبة الوحي إن لم تتجاوزه وفي هذا خطر عظيم آثرت أن ابدأ بكشفه .

٢ ـ ولكون رجال هذه المدرسة ممن لا تحوم حولهم الشبهات عند بعض الناس وعند بعض العلماء ايضاً ولا يقبلون فيهم نقداً أو عتاباً فأحببت ان اكشف حقيقتهم ما استطعت .

٣ ـ ان منهجهم في التفسير جديد لم يشاركهم أحد في جميع قواعده واسسه .

٤ ـ ان الموضوع بكر لم أر من كتب فيه بتفصيل .

لا أريد أن أدرس هنا « المنهج العقلي الحديث في تفسير القرآن الكريم » وإنما أردت أن أدرس « منهج المدرسة العقلية الحديثة في تفسير القرآن الكريم »

وفرق ما بين الدراستين أن الأولى تحتاج الى الإطلاع على جميع المدارس العقلية لتفسير القرآن الكريم في أرجاء العالم الإسلامي وبمختلف اللغات ، بمختلف مناهجها ومختلف اصولها ومختلف اهدافها وغاياتها ومختلف ظروفها التي الجأتها إلى سلوك هذا المنهج .

أما الدراسة الثانية فأخص من الأولى ذلك إنما يقصد بها : تلكم الطائفة التي عاشت في مصر تربط بينها وحده المنهج في التفسير بجميع قواعده وأسسه ووحدة الهدف والغاية ووحدة اللغة ، ووحدة البيئة ، ووحدة الظروف التي مرت بها والجأتها الى سلوك المنهج العقلي ومن ثم سلوك سبيل واحد في القضايا القرآنية يتوآم مع هدفها الذي تسعى إليه تحت تلك الظروف .

تبدأ تلك المدرسة بالسيد جمال الدين الأفغاني الذي بث أفكاره الى تلميذه محمد عبده الذي استلم زمامها من بعده ووسع بحوثها ومن ثم استلمها تلاميذه فنشورها بين الناس حتى سادت في الأذهان ورسخت بين العلماء .

مهدت لتلك الدراسة عنهم بالحديث عن نشأة التفسير وتطوره ومن ثم نشأة المنهج العقلي القديم في تفسير القرآن الكريم ـ وحتى لا يتوهم متوهم أن الإسلام ينقص العقل حقه كتبت ما يجلو ذلك وينفيه وبينت مكانة العقل في الإسلام ودرجته الرفيعة التي انزله إياها، ثم عدت إلى بيان المنهج العقلي القديم ببيان منهج المدرسة العقلية القديمة (المعتزلة) بشيء من التفصيل

حتى ندرك بعد هذا الصلة بين المدرستين العقليتين القديمة والحديثة ، ووجوه الشبه بينهما ووجوه الإختلاف إن كان ثم إختلاف .

وفي الباب الأول كان لا بد من الحديث عن رجال المدرسة العقلية وجلاء حقيقتهم ، أولئك النفر الذين اسسوها وقاموا على رعايتها ورعاية اتباعها ، إذ مما لا شك فيه أن معرفة حقيقة المؤسسين ذو أثر كبير في معرفة حقيقة المدرسة نفسها فبينهما ارتباط قوي لا ينفصم ففي إثبات إنحرافهم إدانة قوية لانحراف منهجهم ، وليس العكس بالعكس هنا فاثبات صلاحهم وتقواهم لا يلزم منه صلاح منهجهم ، فقد يصيب المصلح وقد يخطىء ، ولكنه يلزم سلامتهم وتبرئة ساحتهم من وصف الانحراف . وقد سعيت ما استطعت الى تدوين ما عرفته من حياتهم حتى يتسنى للقارىء الحكم على منهجهم بعد هذا .

وفي الباب الثاني تحدثت عن منهج المدرسة العقلية الحديثة الذي سلكته في تفسير القرآن وبنيت ذلك على أحد عشر أساساً بينتها بالتفصيل واحداً بعد الآخر ولا أرى ما يوجب سردها هنا .

وفي الباب الثالث تحدثت عن بعض آراء المدرسة العقلية الحديثة في بعض علوم القرآن لما لهذه العلوم القرآنية من صلة بالتفسير قوية يلزم بيانها وقسمت الحديث هنا إلى فصول ثلاثة تحدثت في الفصل الأول عن ترجمة القرآن الكريم ، وفي الفصل الثاني عن القصة في القرآن الكريم وفي الفصل الثالث عن اعجاز القرآن الكريم .

أما الباب الرابع فجعلته خاصا بالحديث عن آراء المدرسة العقلية الحديثة في بعض قضايا القرآن نفسه وقسمت الحديث هنا إلى سبعة فصول . الفصل الأول : تحدثت فيه عن قضية الوحي ، وفي الفصل الثاني عن البعث وأمارات الساعة ، وفي الفصل الثالث : عن القضاء والقدر ، وفي الرابع عن المعجزات ، وفي الخامس عن أصل الإنسان وفي السادس : عن الملائكة ، وفي السابع عن الجن .

والباب الخامس جعلته للحديث عن نماذج من تأويلهم لآيات من القرآن الكريم على ضوء الأسس السابقة في منهجهم فخالفوا فيها السلف وجاؤ وا فيها بآراء إن لم تكن شاذة فهي باطلة خاطئة .

وفي الباب السادس تحدثت عن أثر هذه المدرسة في الفكر الإسلامي الحديث وموقف علماء المسلمين منها المعاصرين لها ومن بعدهم وكذا موقف الإحتلال الذي كان يسيطر على البلاد المصرية في عصرها وموقف المستشرقين جنود الاحتلال . ولنصل بعد هذا كله إلى النتيجة التي توصلت إليها بعد هذا البحث ، ومن ثم إعلان الموقف الذي يجب أن نسلكه على ضوء هذه النتيجة .

وفي الخاتمة وجهت الدعوة إلى جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية لتتبنى الدعوة الى مؤتمر لتفسير القرآن الكريم يكون عماده وأساسه منهج السلف وهدفه وغايته صلاح الإسلام وإصلاح أوضاع المسلمين .

ولا يسعني هنا إلا ان اشكر كل من ساعد على ظهور هذه الدراسة واخص بالشكر سمو الامير خالد بن فهد وكيل وزارة المعارف للشؤون التعليمية والادراية . . . وفضيلة الشيخ عبد الفتاح ابو غدة ، والدكتور مصطفى مسلم . . . وقبل هؤلاء اشكر والدي الذي ارشدني إلى سبيل العلم والتحصيل منذ نعومة أظفاري . . . اشكر هؤلاء شكراً جزيلاً وادعو الله مخلصا أن يجزيهم عني خير الجزاء .

وختام شكري وخالصه لله رب العالمين والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف

فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً والصلاة والسلام على رسوله محمد بن عبد الله الذي أرسله ربه شاهداً ومبشراً ونذيراً .

وبعد . . .

عاشت الجزيرة العربية فترة ساد فيها الجهل والظلام كانت القبائل فيها مشتتة والقلوب متنافرة لا صلة دينية توحد صفوفهم ولا مصلحة اقتصادية تضمهم ولا رابطة سياسية تربط بينهم ولا سلام يسود بينهم بل الشريعة شريعة الغاب والعقيدة عقيدة الضلال . ديدنهم توارث العداوات والاحقاد وشغلهم الحروب والغارات ودأبهم السلب والنهب ومعبودهم الأصنام والأوثان .

مكث الناس على ذلك حينا من الدهر بلغ الجهل فيه مبلغه واستحكمت ظلمته فكانوا في أشد الحاجة وأمسها الى نور يجلو لهم تلك الظلمات ويبين لهم الطريق السوي بينما كان الناس كذلك فإذا بالنور يسري في الكون سريان الحياة في الأرض الخاشعة إذ نزل عليها الماء فاهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج .

كان أول شعاعة منه في غار حراء « إقرأ » مشيرة إلى الترابط والتلاحم بين هذا النور وبين العلم وهما نقيضا الظلام والجهل السائدين . ثم تتالت الأشعة فاشرقت الأرض وانتشر النور كان ذلك النور نور القرآن الذي قال عنه عليه الصلاة والسلام : « فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو

الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرّد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾[1] من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم[2] وهو الشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوّم ولا يرفع فيستعتب[3] .

ادرك ذلك هؤلاء القوم فاتبعوه واتخذوه سراجاً في دروب الحياة وكان نفر منهم جهر اعينهم ذلك النور الساطع وأبوا الا تلك الظلمات التي الفتها اعينهم والجهالات التي اعتادتها افئدتهم وكان نفر آخرون عرفوا الحق ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[4] وانكروه ولمسوا الفضل كما يلمسون اجسادهم وجحدوه وكان نفر ثار الحسد في نفوسهم وإشتعلت ناره أراد هؤلاء النفر حجب هذا النور فما أدركته ايديهم وارادوا ان يطفئوه فما بلغته أنفاسهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[5] .

وسارت الفئة الأولى على ذلك النور فاهتدت به وآمنت فوحد كلمتها

---

(١) من الآيتين ١ و٢ من سورة الجن .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث غريب (فضائل القرآن الباب ١٤) وتعقبه ابن كثير في (فضائل القرآن ص ١١) فقال : لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات بل قد رواه محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي عن الحارث الاعور « ثم قال » وهو كلام حسن صحيح على انه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود » ثم ساق الحديث الآتي .

(٣) رواه الدارمي وقال ابو عبيد القاسم بن سلام في كتابه فضائل القرآن (وهذا غريب من هذا الوجه) وتعقبه ابن كثير ولكن له شاهد من وجه آخر . فضائل القرآن ص ١٢ .

(٤) من الآية ١٤٦ من سورة البقرة .

(٥) سورة الصف الآية ٨ .

وجمع شملها وسارت تحت راية واحدة راية الإيمان لتخرج الناس من الظلمات الى النور فحطمت في فترة وجيزة دولِ الجاهلية واقامت في ربوعها دولة الإيمان فإذا بها أمة الأمم وصاحبة السيف والقلم :

وبـدهي أن ذلك لم يتحقق بمجرد قراءتهم للقرآن الكريم وترديد ألفاظه ولم يكن أحدهم ليقرأ القرآن لمجرد زيادة ثقافته ومعرفته بالقضايا العلمية والفقهية ولا لمجرد النظرة التاريخية أو الأدبية وإنما كانوا يتلقون لينفذوا بعد أن تدبروا ففهموا فآمنوا وصدقوا .

فكان منهجهم منهج التلقي للتنفيذ ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه فكان يكتفي بعشر آيات يحفظها ويعمل بها كان هذا المنهج يفتح لهم من الآفاق القرآنية ما لا يفتحه لهم منهج التلقي للدراسة والبحث والثقافة[1] .

ولكي ندرك الفرق بين المنهجين ننظر إلى جيل كل منهج فمنهج التلقي للتنفيذ هو الذي صنع الجيل الأول ثم تخلى الناس عن هذا المنهج شيئاً فشيئاً إلى منهج التلقي للدراسة والبحث والثقافة فنقصت الافضلية شيئاً فشيئاً ، مصداق ذلك الميزان النبوي الدقيق في قوله عليه الصلاة والسلام : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »[2] .

وبدهي أن منهج التلقي للتنفيذ لا يصح إلا إذا كان بعد فهم وتدبر وهكذا كان القوم فقد كان تنفيذهم رضي الله عنهم مبنيا على فهم القرآن وتدبره والكشف عن مراميه وبيان معانيه وهو ما يطلق عليه بـ « التفسير » وقد كان القوم عرباً خلصاً يفهمون القرآن ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية فهما لا تعكره عجمة ولا يشوبه تكدير ولا يشوهه شيء من

---

(١) معالم في الطريق : للشهيد سيد قطب ص ٢٠ .

(٢) متفق عليه .

قبح الإبتداع وتحكم العقيدة الزائفة[1] فالقرآن انما نزل بلسان عربي في زمن افصح العرب وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه أما دقائق باطنه فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنظر وسؤالهم النبي ﷺ في الأكثر[2] فقد كان عليه الصلاة والسلام يشرح لهم ما استعصى عليهم فهمه ويجلي لهم ما عجزوا عن إدراكه امتثالاً لقوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3] .

وبهذا نشأ علم التفسير للقرآن الكريم **القرآن** الذي تضمن جميع ما تحتاج إليه البشرية في أمور دينها ودنياها ماضيها وحاضرها ومستقبلها في عقائدها وأخلاقها وفي عباداتها ومعاملاتها في اقتصادياتها وسياستها في سلمها وحربها .

والتفسير الجسر الموصل إلى هذه المبادىء والمفتاح لهذه الكنوز والذخائر وراحلتنا للتجول في روضاته والمبين لمحكمه والمحذر من متشابهاته .

فان قلت فما أحسن طرق التفسير واسلمها واحكمها ؟ أجبتك بما أجاب به بن تيميه رحمه الله تعالى بأن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن .

بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد بين في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد فصل في آخر فإن اعياك ذلك فعليك .

بالسنة فانها شارحة للقرآن وموضحة له قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا أني اوتيت القرآن ومثله معه »[4] يعني السنة وقال لمعاذ بم تحكم ؟ قال :

---

(١) التفسير والمفسرون . محمد حسين الذهبي جـ ١ ص ٦ .
(٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ٢ ص ١٧٤ .
(٣) من الآية : ٤٤ سورة النحل .
(٤) رواه احمد من حديث المقدام بن معد يكرب والترمذي وقال حسن غريب .

بكتاب الله قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي قال : فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله »[1][2] وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى

أقوال الصحابة : فانهم ادرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لا سيما علماؤ هم وكبراؤ هم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين كابن مسعود وابن عباس . فإن لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى

أقوال التابعين : كمجاهد وسعيد بن جبير . والصحيح أن اقوال التابعين رضي الله عنهم ليست حجة في الفروع فلا تكون حجة في التفسير كما قال شعبة بن الحجاج وغيره هذا إذا لم يكن ثمة إجماع منهم وإلا فلا يرتاب في كونه حجه فإن اختلفوا أو لم تجد تفسير ذلك في أقوالهم ايضاً فارجع إلى

عموم لغة العرب أما التفسير بمجرد الرأي فحرام قال رسول الله ﷺ « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار »[3] . أما إذا كان اجتهادك مبنيا على الكتاب والسنة فلا بأس في ذلك ولا يسمى اجتهادك اجتهاداً إلا اذا بذلت فيه جهدك لتحري اصح الآراء وأسلمها .

هذا هو المنهج السليم والطريق القويم لتفسير القرآن الكريم . فان سألت أكان هذا هو منهج الصحابة رضي الله عنهم في التفسير ؟ قلت : لم يكن بين المنهجين اختلاف فمنهج الصحابة جزء من هذا المنهج فآرائهم مصدر من مصادر التفسير لمن بعدهم ويلزمنا لمعرفة منهج الصحابة في التفسير

---

(١) رواه احمد وابو داود والترمذي والدرامي .

(٢) ملخص ص ٣٦٣ - ٣٧٠ جـ ١٣ من مجموع فتاوى بن تيمية .

(٣) رواه احمد والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح .

وتطوره بعد ذلك ذكر المراحل التي مر بها التفسير ومزايا كل مرحلة الى ان وصل إلى مرحلته الحاضرة فنقول :

المرحلة الأولى « عصر الصحابة »

وقد ذكرت آنفاً أنهم رضي الله عنهم كانوا عرباً خلصاً يفهمون القرآن ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية فهما لا تعكره عجمه ولا يشوهه شيء من قبح الابتداع وتحكم العقيدة الزائفة[1] وإذا ما خفي عليهم معنى أودقّ عليهم مرمى رجعوا إليه عليه الصلاة والسلام فيبين لهم ذلك ويوضحه لهم وإن لم يتيسر لهم ذلك رجعوا إلى اجتهادهم وقد كان التفاوت بينهم واضحاً في هذه الرتبة فكان بعضهم يرجع الى بعض اذ التفاوت فيها راجع إلى التفاوت في قوة الفهم والإدراك والتفاوت في ما احاط بالآية من ظروف وملابسات[2] .

وقد كان كثير منهم رضي الله عنهم يتوقف هناويتحرج من القول في التفسير . فهذا أبو بكر رضي الله عنه يقول : « أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في القرآن برأيي أو بما لا أعلم » . وروى أيضاً عن غيره كثير مما يدل على تحرجهم من ذلك . ولم يكن هذا التخوف ليمنعهم عن القول فيما لهم به علم . ويحسن بنا هنا ذكر بعض مزايا تفسيرهم فمنها :

١ ـ قلة الأخذ بالاسرائيليات وتناولها في التفسير لحرصه ﷺ على إقتصار المسلمين على الاستسقاء من نبع الإسلام الصافي الذي لم تكدره الأهواء ولم تشبه الاختلافات والافتراءات يدل على هذا القصد غضبه ﷺ وقد رأى في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة من التوارة .

٢ ـ لم يكن تفسيرهم يشمل القرآن كله فبعض الآيات من الوضوح لديهم بحيث لا يحتاج إلى خوض في تفسيره لتضلعهم في اللغة ومعرفتهم

---

(١) التفسير والمفسرون محمد حسين الذهبي جـ ١ ص ٦ .

(٢) التفسير والمفسرون محمد حسين الذهبي جـ ١ ص ٣٤ .

باحوال المجتمع آنذاك وأسباب النزول وغير ذلك .

٣ ـ وقد كانوا لا يتكلفون في التفسير ولا يتعمقون تعمقاً مذموماً فقد كانوا يكتفون في الآيات بالمعنى العام ولا يلتزمون بالتفصيل فيما لا فائدة كبيرة في تفصيله فيكتفون مثلا بمعرفة أن المراد بقوله تعالى : ﴿وفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ انه تعداد لنعم الله تعالى على عباده[١] .

٤ ـ قلة تدوينهم للتفسير ويرجع ذلك إلى نهيه ﷺ أول الأمر عن كتابة شيء غير القرآن خشية ان يلتبس عليهم كلامه بالآيات القرآنية ثم أذن لهم بالكتابة بعد أن أمن عليهم من اللبس .

وأعتقد بعض المؤرخين ان التدوين للسنة لم يبتدىء إلا في نهاية القرن الأول في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

والحق ان التدوين كان موجودا في وقت الصحابة ونضرب لذلك مثلا بالصحيفة الصادقة كما يسميها صاحبها ومدونها عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي يقول عنها « هذه الصادقة فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه فيها أحد »[٢] وهي موجودة في مسند الامام احمد[٣] . وغير ذلك كثير ليس هذا مجال ذكره مما يدل على ان التدوين كان قد ابتدأ في وقت مبكر ولكنه كان على نطاق ضيق .

كان ذلك منهج الصحابة الصافي النقي ولست بهذا اقصد الاقتصار على تفسيرهم ونبذ ما سواه ولكني افضل قواعدهم ومناهجهم التي ساروا

---

(١) مقدمة التفسير لابن تيمية ص ٣٧٢ ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية مجلد ١٣ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٨٩ قسم ٢ جـ ٧ وتقييد العلم للخطيب البغدادي ت يوسف العش ص ٨٤ .

(٣) مسند احمد ت أحمد شاكر واستغرقت من ص ٢٣٥ حديث ٦٤٧٧ الجزء التاسع والجزئين العاشر والحادي عشر بكاملهما والثاني عشر الى ص ٥١ حديث ٧١٠٣ .

عليها فالصفاء هنا صفاء منهج والنقاء نقاء عقيدة ثم انتقل التفسير بعد هذا الى مرحلة أخرى .

المرحلة الثانية « عهد التابعين »

ولم يكن ثمة كبير فارق بين منهج الصحابة ومنهج التابعين . فقد تلقى التابعون تفسيرهم من الصحابة فقد اقام ابن عباس رضي الله عنه مدرسته للتفسير في مكة واقامها ابن مسعود رضي الله عنه في العراق واقامها ابي بن كعب رضي الله عنه في المدينة . وكان هذا السلف الصالح يتحرج ايضاً من القول في التفسير كتحرج سلفه رضي الله عنهم . فهذا سعيد بن المسيب كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع . وهذا الشعبي يقول والله ما من آية إلا وقد سألت عنها ولكنها الرواية عن الله . وهذا كله محمول على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه[1] .

وإن كان ثمة فارق فهو أمر استوجبه اتساع انتشار العلم مع انتشار الاسلام ونقصد بذلك .

١ ـ اتساع رواية الاسرائيليات بسبب دخول كثير من أهل الكتاب في الإسلام وقد علق في اذهانهم ما في كتبهم وكانت النفوس متفتحة لسماع تفاصيل ما أشار اليه القرآن الكريم فتساهل بعضهم فزج في التفسير بكثير من الاسرائيليات بدون تحر ونقد وقد اشتهر رواة هذه الاسرائيليات فمنهم كعب ووهب وابن سلام[2] .

٢ ـ كثرة الخلافات التفسيرية وزيادتها عما كانت عليه فهم قد تناولوا ما اشتمل عليه التفسير في عصر الصحابة واضافوا إليه آراءهم حسب اجتهادهم ومن ثم زادت الأقوال والتفسيرات في الآية الواحدة . وشمل التفسير آيات لم

---

(١) مقدمة التفسير ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٣ ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ .